فقيد الأدب التونسي

أبو القاسم الشـــــابي

ولد سنة ١٩٠٩ وتوفى سنة ١٩٣٤

أبو القاسم الشابي

ثكلت تونس ، بل الأدب العربي عامة ، أديباً عبقرياً فذاً ، كان منتظراً منه — لو امتدت حياته — أن يكون كوكباً لامعاً في سماء الأدب العربي الجديد ، بل دعامة قوية ترتكز عليها المدرسة الحديثة للشعر العصري . ذلك هو الشاعر المبكي على شـــبابه أبو القاسم الشابي

ولد أبو القاسم الشابي عام ١٩٠٩ في مدينة « توزر » عاصمة الواحات التونسية الجميلة بالجنوب ، من أسرة ذات مجـد ، وكان أبوه الشيخ محمد بن أبي القاسم الشابي قاضياً شرعيا ، تنقل بوظيفته في مدن مختلفة . وهو من قبيلة كبيرة ذات تاريخ حافل تدعى الشابية

أما حياة الشاعر الفقيد فليس فيها من الحوادث ما يهم كثيراً لقصرها ، فلم يتخط فجر شبابه الغض ، ولم يطو الخمسة والعشرين عاماً بعـد ؛ إلا أن هذه الفترة الصغيرة في تاريخ نموه الفكري ذات خطر عظيم ، ذلك أن المذهب الذي ذهب اليـه في نظم أشعاره مذهب فذ لم يظهر منه في الشعر العربي إلا النادر

وليس في مراحل تعلمه التي قطعها بغاية الفوز والنجاح شيء غير عادي ، فهو كأمثاله الكثيرين قد حفظ القرآن في طفولتـه ، والتحق بجامع الزيتونة يتلقى علوم العربيـة على الأساليب القديمة من المتن والشرح والحاشية ، وعلوم الشريعة الاسلامية كالفقه والأصول والتوحيد ، الى أن كان الامتحان النهائي فتخطاه عام ١٩٢٦ ونال الشهادة المسماة بالتطويع

والتحق بعد ذلك بمدرسة الحقوق التونسية فاجتاز امتحاناتها وحصل على إجازة الحقوق ، ثم لم يتركه مرض الصدر يتمم دراسته ، فانقطع عن التعلم من ذلك الحين والتفت الى معالجة هذا المرض العضال الذي ظل معه يعاديه ويراوحه حتى ذهب في يوم ٨ أكتوبر بحياته الغضة

لم يدرس أبو القاسم لغة أجنبية ، ولم يكن له من الزمن ما يسع طول الدرس ومطالعة المترجمات ، فقد كان أطباؤه ينهونه عن كد ذهنه والاشتغال بالأعمال الفكرية ، وتلك لعمري آية عبقريته النادرة ، ومعجزة نبوغه الفريد

كان جباراً متمرداً على القديم ، وكان في الوقت ذاته رقيق الاحساس مشبوب العاطفـة ، لايستمرئ المنازعات والمشاكسات ، فكان من جراء ذلك تفاعل بينه وبين بيئته ، تلمح آثاره واضحة في أشعاره

فقد كانت مطالعاته الأولى في الأدب العربي بالمهجر الأمريكي ، فاستأسره أسلوب زعيم تلك المدرسة المرحوم جبران ، وكانت أشعاره الأولى ذات نزعة جبرانية في الأسلوب . وكان يقول الشعر منظوماً ومنثوراً ، ولكنه كان أعمق روحاً وأبعد قراراً . وكانت موضوعاته في فلسفة البؤس والشقاء ، والتبرم بالحياة ومتاعبها

الخصوص بالعالم الداخلي من الانسان ، فتبحث عن أخلاقه وعواطفه وأهوائه ، فهي تضع على المسرح نفوساً بدل أن تضع أشخاصاً ، ولا تعنى مطلقاً بالرياش المسرحي ولا باللون المحلي ، وتقصد كل القصد في تعقيد العمل الروائي ؛ ولكن الدرامة لا تحفل إلا بالعالم الخارجي من المرء ، والجزء المادي من المسرح ، وتبالغ في رعاية الرياش والزخرف ، وترجح التأثير في الحواس على التأثير في الذهن ، وتحرص على أن تظهر الأشخاص في لباس الزمن الذي عاشوا فيه وتسمهم بعادات بنيه ، وتؤثر تعقيد العمل وتحرج المواقف على وصف الأهواء وتصوير العواطف . ثم إن المأساة تخضع لقانون الوحدات الثلاث ولا تجيز نجوى النفس . ولذلك خلقت الانجياء Confidentes ليسارّهم الأشخاص بما يفكرون ؛ ولكن الدرامة تحللت من سلطان الوحدات الثلاث فلم تبق إلا وحدة العمل ، وأسرفت في إيراد النجوى على ألسنة الأشخاص الأصليين فياضة بالأسلوب الوجداني فقضت بذلك على الأنجياء

يتبع

الزيات

على أننا إذا قلنا إن أبا القاسم قد تأثر بمدرسة جبران فلا بد لنا أن نتحفظ ، فقد تزود — رحمه الله — من الأدب العربي القـديم بثروة طائلة ، مكنته من إخضاع التعابير الفصيحة لمعانيه الجديدة بما يميزه من غيره ، ومما لم يكن من ظواهر تلك المدرسة التي تذهب أحياناً وراء حرية التعبير عن خوالج النفس مذاهب تخرجها عن سنن العربية وقواعدها الأولية

ثم إن شاعرنا كان مفتوناً بالآداب الغربية ، يتهافت على قراءة كبار عباقرة الغرب الذين ترجمت أشعارهم وآدابهم ويدرسها بروية حتى تأثر بها وخالجت روحه ، وربما تعجب قراؤه كثيراً حينما يعلمون أنه لا يقرأ إلا اللغة العربية لجهله بغيرها

ويمكنك أن تدرك سعة اطلاعه على الأدب العربي القديم وإحاطته بجميع ما ترجم إلى العربية من نفائس الأدب الغربي ، إذا اطلعت على مؤلفه الذي أخرجه منذ سنوات تحت عنوان « الخيال الشعري عند العرب » فمن مطالعة هذا الكتاب الذي هو عبارة عن دراسة مستفيضة على طريقة النقد العصرية للأدب العربي في جميع عصوره ، ومقارنة للأدب الغربي في كثير من أعلامه تدرك مبلغ تفوقه ونبوغه

قلنا إن أبا القاسم كان يقرع في أوائل أمره نزعة تشاؤم وتبرم بالحياة ، على أن سخطه هذا لا شيء فيه من الضعف والرخاوة ، فهو يعاتب الدهر وكأنه ندّ له في كبرياء وجبروت ينبئ عن حب الحياة في أعماق نفسه ، حتى أنه لم تدم شكواه طويلاً ، فتجلت روح التمرد والقوة في قصائده الأخيرة التي منها « نشيد الجبار » وقد نشرت في أحد أعداد « أبولو » ومنها قصيدة « البعث » وستظهر في ديوانه ، أودعها كل ما في نفسه من حب للحياة وتطلع إلى مثلها العليا في أسلوب رائع فريد

ولا نستطيع أن ننسى أن للصدمات التي اعترضته أثراً عميقاً في صهر نبوغه واستقلال فنه ، كما أنه قضى مدة أربعة أشهر في وحدة شعرية بديعة بين جبال « عين دراهم » وغاباتها ، وهي من أجل بلاد تونس منظراً وسحراً ، فخرج بشعر طبيعي نادر

رحم الله أبا القاسم الشابي ، وعوض الأدب العربي عنه خيراً

نموذج من شعر الفقيد

اصطدم أبو القاسم الشابي بشعور بيئته الراكدة ، وضايقه المتزمتون الجامدون ، فضاق الشاعر ذرعاً ، ونفّس عن قلبه الحساس بهذه القصيدة الرائعة :

النبي المجهول

أيها الشعب ، ليتني كنت حطّا ... با ، فأهوي على الجذوع بفأسي!
ليتني كنت كالسيول إذا سا ... لت تهد القبور رمساً برمس . .
ليتني كنت كالرياح . . فأطوي ... كل ما يخنق الزهور بنحسي[1]
ليتني كنت كالشتاء . . أغشّى ... كل ما أذبل الخريف بقرسي
ليت لي قوة العواصف ياشعـ ... ـبي فألقي اليك ثورة نفسي . . .
ليت لي قوة الأعاصير . . لكن ... أنت حي يقضي الحياة برمس . .
أنت روح غبية تكره النو ... ر وتقضي الدهور في ليل ملس
أنت لا تدرك الحقائق إنـ ... ـك طافت حواليك ، دون مس وجس

* * *

في صباح الحياة ضمخت أكوا ... بي وأترعتها بخمرة نفسي . .
ثم قدمتها اليك ، فأهرقـ ... ـت رحيقي ودست ياشعب كأسي!
فتألمت . . ثم أسكت آلا ... مي وكفكفت من شعوري وحسي
ثم نفضت من أزاهير قلبي ... باقة لم يمسها أي إنس
ثم قدمتها اليك ، فمزقـ ... ـت ورودي ودستها أي دوس
ثم ألبستني من الحزن ثوباً ... وبشوك الصخور توجت رأسي

* * *

. . . ها أنا ذاهب إلى الغاب ياشعـ ... ـبي لأقضي الحياة وحدي بيأس
ها أنا ذاهب إلى الغاب علّي ... في صميم الغابات أدفن نفسي . .
ثم أنساك ما استطعت فما أنـ ... ـت بأهل لحرقتي ولكأسي
سوف أتلو على الطيور أناشيدي وأفضي لها بأحزان نفسي
فهي تدري معنى الحياة وتدري ... أن مجد النفوس يقظة حس
ثم أقضي هناك في ظلمة الليـ ... ـل وألقي إلى الوجود بيأسي
ثم تحت الصنوبر الناضر الحالـ ... ـو تخط السيول حفرة رمسي
وتظل الطيور تلغو على قبـ ... ـري ويشدو النسيم فوق بهمس
وتظل الفصول تمشي حوالي ... كما كن في غضارة أمسي . . .

* * *

أيها الشعب أنت طفل صغير ... لاعب بالتراب والليل مسي

(١) النحس البرغ الباردة عند إدبارها

أنت فى الكون قوة لم تنسها فكرة عبقرية ذات بأس
أنت فى الكون قوة كلتها ظلمات العصور من أمس أمس
والشق الشقى من كان مثلى فى حساسيتى ورقة نفسى

* * *

هكذا قال شاعر ناول الشه ب رحيق الحياة فى خير كأس
فأشاحوا عنها ، ومروا غضابا واستخفوا به وقالوا بيأس :
« قد أضاع الحياة فى ملعب الجن (م) فيا بؤسه ! أصيب بمس ! »
« طالما خاطب العواصف فى اللي ل وناجى الأموات فى كل رمس »
« طالما رافق الظلام إلى الغا ب ونادى الأرواح من كل جنس »
« طالما حدث الشياطين فى الوا دى وغنى مع الرياح بجرس »
« إنه ساحر تعلمه السحرَ الشيا طين كل مطلع شمس . . . »
« أبعدوا الكافر الخبيث عن الحي كلّ إن الخبيث منبع رجس »
« اطردوه ، ولا تصيخوا إليه فهو روحٌ شريرة ذات نحس »

* * *

هكذا قال شاعر فيلسوف عاش فى شعبه الغبي بتعس
جهل الناس روحه وأغانيـ ـها فساموا شعوره سوم بخس
فهو فى مذهب الحياة نبي وهو فى شعبه مصاب بمسّ !
هكذا قال ثم سار إلى الغا ب ليحيي حياة شعر وقدس

* * *

وبعيداً ، هناك فى معبد الغا ب الذى لا يظله أى بؤس
فى ظلال الصنوبر الحلو والزيـ ـتون يقضى الحياة حرساً بحرس
فى الصباح الجميل يشدو مع الطيـ ـر ويمشى فى نشوة المتحسى
ناشقاً تاية ، حواليه تهتز (م) ورود الربيع من كل قنس
شعره مرسل تداعبه الريـ ـح على منكبيه مثل الدمقس
والطيور الطراب تشدو حواليه وتلغو فى السرو من كل جنس.
وتراه عند الأصيل ، لدى الجد ول يرنو للطائر المتحسى
أو يغني بين الصنوبر ، أو يرـ ـنو الى سدفة الظلام المسى
فاذا أقبل الظلام وأمست ظلمات الوجود فى الكون تغشى
كان فى كوخه الجميل مقيما يسأل الكون فى خشوع وهمس:
عن مصب الحياة ، أين مداه ؟ ؟ وصميم الوجود ، أين يرمى ؟ ؟
وعبير الورود فى كل واد ونشيد الطيور حين تمسى . .
وهزيم الرياح فى كل فج . . ورسوم الحياة من أمس أمس . .
وأغانى الرعاة ، أين يواريـ ـها سكون الدجى ، وأين تمسى ؟ ؟

* * *

هكذا يصرف الحياة ويفنى حلقات السنين حرساً بحرس
يا لها من معيشة ، فى صميم الـ ـغاب تضحى بين الطيور وتمسى !
يا لها من معيشة ، لم تشبها نفوس الورى بخبث ورجس !
يا لها من معيشة ، هى فى الكو ن حياة غريبة ذات قدس . .

تونس — عبد سباك

أضخم كتاب فى اللغة العربية

القاموس المحيط

لمجد الدين الفيروزابادى

لا يستغنى عنه عالم ولا متعلم ، يعين على حل المشكلات وفهم المعضلات

فى أربعة أجزاء ضخام . طبع جميل ، على ورق صقيل ؛ ويطلب من المطبعة الميرية تليفون ٥١٧٠٤ وثمنه خمسون قرشاً صاغاً خالصاً أجرة البريد . بادر بطلبك الآن قبل ارتفاع السعر أو نفاد النسخ ، ويوجد منه ورق عادى بخمسة وثلاثين قرشاً